رحلة أبي الطيب المتنبي

من مصر إلى الكوفة

للأستاذ أحمد رمزي بك

ترك المتنبي الفسطاط في ليلة عيد الأضحى سنة ٣٥٠
ودخل الكوفة في ربيع الأول سنة ٣٥١ هجرية

أحب أبا الطيب المتنبي وأتغنى بشعره ، فنظمه لدى نشيد الإنشاد . إذا جال شعره في خاطري أو طرق أذني أحسست بأنني لست غريبا عن صاحبه ، وكأنني قد تعرفت إليه وعاشرته في حياة أخرى قبل اليوم . إن شعر المتنبي كالدواء النفيس الذي يفرضه الطبيب على المريض في دور النقاهة لكي يقوى جسمه وتشتد نفسه ، فإذا اعتاده المرء صعب عليه بعد الشفاء أن يتركه ، وأصبح بحكم العادة جزءا متمما لمأكله ومشربه

كذلك شعر أبي الطيب هو الدواء النفسي الذي لجأت إليه كثيرا لكي أقوي نفسي على مواجهة الملم من الأمور ، ولكي أقدم على الصعب منها ولكي أحيا الحياة التي تلائمني

كان رحمة الله عليه يحب المجد ، ولا أنكر على القارئ أنني أحب المجد وممن يعشق العلا ، وكان المتنبي خير شعراء العالم في وصف الحرب ومعاركها ومشاهدها ، ولا أخفي على القارئ أنني أعتبر الأمم التي تحارب وتواجه الموت أقوى الأمم وأعزها وأحقها بالحياة — فالحياة إذا لم تقترن بالمخاطرة والإقدام في كل يوم فلا قيمة لها في نظري. وأنا ممن يفهم قوله :

ولا تحسبن المجد زقا وقينة ... فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتركك في الدنيا دويا كأنما ... تداول سمع المرء أنمله العشر

أنا لست أديبا ولا صناعتي الأدب ، أقول هذا لأقرر حقيقة واقعة ، ولكني أومن بأن الشعر والأدب ليسا وقفا على الأدباء والشعراء ، وإنما الأدب بضاعة يتذوقها الناس جميعا، هي مثل الهواء والنور . وكنت أطمع في أن أكون أديبا ولكن عملي وكثرة مشاغلي حالت بيني وبين التفرغ للأدب ، وإن كنت عودت نفسي أن أختلس الفرص لمجالسة أهل الأدب آخذ عنهم وأتحدث إليهم ، وأرى أن كل دقيقة أقضيها في صحبتهم هي متعتي ، ويرجع ذلك إلى ما ألمسه فيهم من رقة الإحساس. . . فهم برغم ما يشيعونه عن أنفسهم ، مصابيح الظلام وسط هذا العالم المدلهم الذي وجدنا أنفسنا فيه ، ونحن لا ندري من أين أتينا إليه ، ولم يؤخذ رأينا حينما قذفت بنا الأقدار للعيش في ربوعه والخوض في غمراته ..

فأرجو من القارئ حين يقرأ ما أكتب عن الأدب ، ألا يتصور أنني قد درست المتنبي في ديوانه وتأملت أفكاره واطلعت على خفايا تاريخه، أو أنني انكببت أحفظ قصائده وأقرأ ما كتبه الناقدون عنه ، أو أنني تتبعته في رحلاته وغزواته

فهذه أمور ليس من السهل الإلمام بها ، ولست أدعي أنني سأقوم في يوم من الأيام ببحثها ودراستها وتقصي أنباءها ، إذ الباقي من العمر قليل ، وما أكتبه ما هي إلا أماني ورغبات أرجو أن يقوم بها الغير إذا شاؤوا . ولذلك يحق لي أن أصرح بأن المتنبي كشاعر عالي رج الدنيا ولا يزال شعره يرج النفوس ويهزها ، لم يلق من رجال الأدب العربي ورعاة الشعر ما يستحق من عنايتهم ، أقول هذا على رغم ما كتبه المعاصرون عنه ، وبرغم ما ذكره المتقدمون من أن أكثر من ستين عالما لغويا قد تصدوا لديوانه بالنقد والتفسير والتفنيد . إنه لا يزال في نظري مع عصره وحياته وفكره وشعره دنيا جديدة للبحث والتأمل والدرس والجمع والتبويب . إنه ليس بشاعر يدرسه طالب في رسالته أو أطروحته ، ولا برجل يتقدم أديب واحد أو عالم واحد ، كائنا ما كان علمه وفضله ، فيكتب فيه كتابا ويقول هاكم اقرأوا كتابي، فقد قرأت المتنبي ودرسته وفهمته إن مثل هذا لا يقال عن أبي الطيب المتنبي وفيه ظلم لتاريخه وافتئات على عبقريته ، لأن المتنبي ومعه غيره من فطاحل شعراء العرب في مختلف العصور ، يحتاجون إلى جيل من الناس ، يتكب على دراستهم بأسلوب علمي صحيح

وليعذرني القارئ إذا قلت إن المتنبي يستحق أن ينصرف لديوانه وعصره مجموعة من علماء العرب : في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا والاجتماع وعلم النفس ، لأن كل ناحية في

المتنبي تحتاج إلى كشف جديد ودراسة وبحث وتدقيق وجمع وتبويب ، وأن أسماء البلاد التي جاء ذكرها في شعره عن سيف الدولة هي المرجع الوحيد لنا للحروب التي قامت يوما ما بين المسلمين والروم ، وهي حروب ليس من السهل تقصي أجنادها..

والصورة التي أعطيها للمتنبي في هذه الكلمة متواضعة ، لأنها قاصرة على سفره من مصر وخروجه منها في ليل عيد الأضحى سنة ٣٥٠ ووصوله الكوفة في ٢٥ ربيع الأول سنة ٣٥١ ، وإن حوت نظرة أولى عن مقامه بمصر وبعض أيامه بها

الذي نعرفه هو أن المتنبي جاء مصر وعاش في كنف كافور الإخشيدي سنوات وقال الشعر : فأين كان مقامه وكيف عاش وكيف أقضى وقته ومن عاشر من الناس ؟

كلها أمور تحتاج إلى بحث وتدقيق وتأمل ، وليست موضع استنتاج أو رجم بالغيب كما يلجأ بعض المؤلفين المعاصرين ، لأنها ليست بالسهولة التي يتصورونها عليها، فإذا لم تسعفنا النصوص والمراجع، وإلى أن تكتشف غوامضها، لا يسعنا أن نحكم حكما متسرعا ، وإنما نكتفي بإيراد ما نعلمه عنها ، وليس لدي شيء أقدمه سوى نظرة أولى عن بعض الأماكن التي ورد ذكرها في أيام إقامته بمصر

ولم تكن القاهرة قد أنشئت بعد ، فكانت الفسطاط هي مصر ، وكانت حياة الشعب مركزة حول جامع عمرو ، أي الجامع العتيق كما كان يطلق عليه وقتئذ ، وكانت جزيرة الروضة أمام الفسطاط : يراها الجالس أمام الجامع ويرى في اتجاهها على الضفة الأخرى للنيل حصن الجيزة الذي أنشأه العرب عند الفتح ، والذي تهدم بعد ذلك فعمره أحمد بن طولون مدة ولايته ، كان هذا الحصن قائما أيام المتنبي لأن كافورا الإخشيدي جدد بناءه وعمره وحفر حوله خندقا ، أنه كان يخشى المغرب وأهله ...

وكان الحصن ملاصقا لمسجد همذان وهي إحدى القبائل التي نزلت بالجيزة أيام الفتح ، وسكان الجيزة من خلاصة عرب اليمن ولا أعرف لهم نسبا آخر غير هذا

فهذا كان المنظر الذي يواجهه من يخرج من باب المسجد العتيق، ولا نعلم كما قلنا الأماكن التي نزل فيها المتنبي ، وإن كان جاء ذكر دار أخلاها له كافور بالفسطاط وأنه وكل به من يخدمه ويسهر عليه، ولا أجزم بأنها كانت بعيدة عن مسجد عمرو

وبدأ مدائحه في سنة ٣٤٦ ولم يأت في شعره بشيء من حياته التي كان يحياها ولا عن الأماكن التي ارتادها ولا ممن كان معه من الأهل والعبيد والخدم ، وإذا جاء ذكر شعره ، والجامع الأعلى ويقصد به مسجد ابن طولون ، والدار التي بناها كافور وسكنها جاء ذكرها على مرتين في ٣٤٦ و ٣٤٧ هجرية

ورغم الجهود التي بذلت أخيرا في الكشف عن تاريخ الدولة الإخشيدية ، لا تزال هذه الحقبة من الزمن في حاجة إلى مراجع أوسع مما لدينا ، لأن ما وصل إلينا عن حياة كافور الخاصة وما كان يسود البلاد المصرية من أحوال سياسية لا يزال موضع التساؤل ، فإن احتفاظ مصر بموقفها الاستقلالي بين الدول العباسية وقوة الفاطميين ودفاعها عن أملاكها من أراضي الشام ، أمور غامضة إن دلت على شيء فإن هذا الشيء هو عبقرية كافور وحده ... الذي استمر يسيطر على دولة إسلامية واسعة الأطراف بدليل قول أبي الطيب

يدبر الملك من مصر إلى عدن إلى العراق فأرض الروم فالنوب

وإذا نظرنا لشعر المتنبي وجدناه لا يتعرض لأي ناحية سياسية بالذات وإن جاء ذكر أبي شجاع فاتك أحد قواد الإخشيديين وما كان يؤمله فيه. ويظهر أن المتنبي كانت له رسالة خاصة في مصر كما سيظهر ذلك ، ولذا تحاشى جهده أن يظم في شعره بعض ما يمكنه من الاهتمام بها ، واكتفى بالمدائح والشكوى لإخفاء غرضه من المجيء إليها.

والذي أستخلصه من عصره هو أن الجامع الطولوني أنشيء (١) على ربوة جبل يشكر ، « كان يطل على بركة قارون التي كانت تتصل أيام الفيضان ببركة الفيل ، وكان الواقف على جبل يشكر أو على مئذنة ابن طولون يكتشف الجيزة ويرى الأهرام وينظر إلى مباني الفسطاط ذات الطبقات العالية ، وقد جاء في ديوانه ذكر الدار التي كان يسكنها كافور ، أشار إليها بمناسبة خروج كافور هاربا منها ، أو في أيام يسيرة مات له حول الحسين غلاما ففزع من الدار واستوحش منها ، ويظهر أنه منذ أن سقطت

(١) ابن دقاق ج ٤ ص ١١ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ج ٥ ، ٢ ، ٤

دولة آل طولون لم يكن بمصر دار تصلح لسكنى الملوك ، لأن دار الإمارة التى نزلها أحمد بن طولون ولها بقايا الآن لم تكن جديرة به ، ولذا أنشأ القصور الكبيرة التى هدمت بعد سقوط دولته ، ولما جاء كافور أصلح دارا كانت لأحمد بن طولون وسكنها ، فمدحه المتنبى فى سنة ٣٤٧ بقوله :

أحق دار بأن تدعى مباركة دار مباركة الملك الذى فيها

ويذكر الديوان أن أبا الطيب مدح كافورا فى عام ٣٤٦ لما بنى بجوار المسجد الأعلى — أى مسجد ابن طولون — دارا فهنأه الناس بها ، ولما تحول إليها قال:

نزلت إذ نزلتها الدار فى أحـ ـسن منها من السنا والسناء
حل فى منبت الرياحين منها منبت المكرمات واللألاء

وليس من شك فى أن الدار التى جاء ذكرها سنة ٣٤٦ هى التى أنشأها كافور ، وأن التى جاء ذكرها فى ٣٤٧ هى التى عمرها ، وهناك إجماع على أنها لم تكن لأحمد بن طولون بل كانت لابنه خمارويه

فقد ذكر ابن دقماق تحت « دار الفيل » أنها الدار التى على بركة قارون ، وكان كافور أمير مصر قد اشتراها وبنى فيها داراً ذكر أنه أنفق عليها مائة ألف دينار وسكنها فى رجب سنة ٣٤٦ وقيل إنه سكنها إلى أن مات ودفن فيها ثم نقل بعد ذلك إلى الصحراء ، وقيل إن سبب انتقاله من جنان بنى مسكين بخار البركة ، وقيل وباء وقع فى غلمانه ، وقيل ظهر لها جان.. ابن دقماق صفحة ١١ جزء ٤.. وفى صفحة ١٢٥ يقول «وقيل لم يقم بها غير أيام قلائل ثم أرسل إلى أبى جعفر مسلم الحسينى ليلا ، فقال امض بى إلى دارك ، فمضى به فمر على دار المرصدى وأقام بها شهورا ثم عمر دار خمارويه المعروفة بدار الحرم بسوق حبة وسكنها أول رجب سنة ٣٤٧ هجرية وأقام بها عشر سنين إلى أن توفى فى جمادى الأولى سنة ٣٥٧ ودفن بها ثم نقل إلى الصحراء »

ويقول المقريزى « كانت دار الفيل قديما هى الدار التى على بركة قارون وقد ذكر مثلا مسكين أنها من حبس جدهم ، وذكر ابن يونس أنها فى جنان بنى مسكين يعنى هذه الدار فى خططهم» وكان كافور أمير مصر قد بنى فيها داراً أنفق فيها مائة ألف دينار ثم سكنها سنة ٣٤٦ وانتقل إليها وأدخل فيها عدة مساجد ومواضع اغتصبها من أهلها ، ولم يقم بها غير أيام قلائل ثم أرسل إلى أبى جعفر مسلم الحسينى ليلا فقال له امض إلى دارك فمضى به فمر على دار فقال لمن هذه الدار فقال لغلامك يعنى دار المرصدى فدخلها وأقام بها شهورا إلى أن عمر دار خمارويه المعروفة دار الحرم بسوق حبة وسكنها أول رجب سنة ٣٤٧ وأقام بها إلى أن توفى »

ألا تشفق معى حينما تقرأ هذا على أولئك الذين يهدمون أحياء القاهرة بإزالة قبور الصالحين أو تقيد الأسماء القديمة بأسماء المعاصرين فى مدينة عاشت أكثر من ١٤ قرنا ... إنهم مخطئون فى حق بلادهم ، لأن مفاتيح التاريخ القديم تنقطع صلته بنا حينما تغير الأسماء الموضوعة وتهدم القبور ...

فلنعد إلى ما كنا فيه حيث يذكر المقريزى سبب خروج كافور من داره بقوله « أن وباء وقع فى غلمانه وقيل ظهر له بها جان، وكان دار الحرم قد حبسها خمارويه — أى أوقفها على حرم والده — ثم إن الفيلة نقلت إلى الدار التى لهم الآن بالقرب من الجامع الطولونى على جبل يشكر قبل مناظر الكبش »

الآن الصلة الآن بين شعر المتنبى وأماكن يعرفها أهل القاهرة واضحة سهلة أمامك فى جهات مررت بها ، ويظهر أن المقريزى وابن دقماق ينقلان من مصدر واحد ، ولكن الأول يقرر فى صفحة ١٢٩ من الخطط ما يأتى :

« قال القاضى أبو عبد الله بن محمد سلامة القضاعى فى كتاب الخطط ... وأن دار الحرم بناها خمارويه لحرمه وكان أبوه اشتراها له فقام عليه الثمن وأجرة الصناع والبناء بسبعمائة ألف دينار »

إذن عرفنا المصدر لتحديد أماكن الفسطاط ومنازل آل طولون هو القضاعى ولكن أين خططه ؟

ويظهر أمامنا أنه فى عصر المتنبى بمصر كان الجزء الواقع بين جامع ابن طولون والقلعة — التى لم تكن قد انشئت بعد — كانت تحتله بقايا قصور ابن طولون وكانت خرابا يشمل جزءا كبيرا من الأرض فى عهد كافور ، بدليل قول المعز لدين الله الفاطمى حينما دعاه جوهر إلى مصر ، إنها لا تحوى غير خرائب ابن طولون

لقد كان المسجد الطولونى ومناظر الكبش تطل على

البركتين.. بركة الفيل وبركة قارون ، وكانت الدار التي سكنها كافور ومدحه المتنبي من أجلها لا تبعد كثيرا عن المسجد ، أما بركة قارون ، وموقعها خلف جامع ابن طولون على رأى المقريزى وتؤكده خرائط الحملة الفرنسية ، فكانت تتصل ببركة الفيل وتكونان بركة واحدة أيام الفيضان

وكان امتداد بركة الفيل من جامع ابن طولون إلى القاهرة — حيث تقوم الآن الأحياء الحديثة ومنها الحلمية —

لقد أمضى المتنبي حياته بمصر في أحياء الفسطاط وفي القصور بين البركتين ، وكان يذكر الجامع العتيق وجامع ابن طولون ودار كافور التي مدحه من أجلها المتنبي، ذكرها المقريزى بقوله «إن الجالس في دار الفيل التي سكنها كافور كان يرى جزيرة مصر التي تعرف بالروضة »

هل نقدر أن نضبط أحياء الفسطاط وخططها وأماكنها المشهورة ؟

هل نستطيع أن نوجد خريطة عن مصر القديمة وقصور بني طولون ؟

ترى ماذا يكون الموقف لو لم يسعفنا المتنبي بشيء عن حياته الخاصة ومن كان يعاشرهم من الناس بمصر

هل يستطيع عالم أن يقوم بهذا بالنصوص التي بين أيدينا ؟

لا شك في أن جنان بني مسكين وسوق حبة من الممكن أن نحددها وكذلك امتداد النهار السابق في الفسطاط ومصر وحول مدائن العسكر والقطائع ومن هنا تبعث مصر الإخشيدية : إنها في حاجة إلى من ينير لنا الطريق لكشفها وتحديدها

وإن كان المقريزى ينير لنا السبيل إذ يقرر في صفحة ٢١٥ عند كلامه على خطط مصر خارج باب زويلة « إن الموضع المقابل لمشهد زين العابدين كانت كله تشتمله بساتين شرقيها عند المشهد النفيسي وغربيها السبع شكايات ومنها بساتين عرفت بجنان بني مسكين وعندها بنى كافور الإخشيدى داره على البركة التي تجاه الكبش والتي تعرف اليوم ببركة قارون»

هذه لمحة لما كانت عليه صورة مصر حين عاش فيها المتنبي..

* * *

ولا أشك في أن الفسطاط كانت مدينة لها مكانتها التاريخية وأثرها في حياتنا الأدبية والتاريخية والسياسية . إنها البوتقة الأولى التي انصهرت فيها القومية المصرية الإسلامية العربية ولذلك تتمزق الأحزان حينما أراها في الحالة التي هي عليها اليوم

وتعود بي الذكريات إلى مدينة بومبي الأثرية الرومانية بجوار نابولى. لقد زرتها هذا العام — فدهشت حينما رأيت هذا التقدم في الكشف عن المدينة المطمورة وإعادة شوارعها ومبانيها وبعض منازلها وأسماءها إلى الحال التي كانت عليها حينما دهمتها ثورة البراكين ، هذه المدينة القاتمة التي أخرجها العالم . .

نعم إن الأستاذ الإيطالى أميديو انيورى ، الذى يشرف على أحيائها ، واحد من سلسلة طويلة من علماء العالم الذين كرسوا حياتهم وأفنوا أيامهم في سبيل بومبي

فهل تجد الفسطاط عالما أثريا واحدا ، يفنى بعض السنوات في إحيائها وضبط معالمها وخططها وإعادتها إلى النور؟ إنها تستحق هذه العناية لأننا جزء مكمل لتاريخها ، وما رأيت بلدا تنكر لماضيه الحي غيرنا ، إن بانيها عمرو بن العاص وهو أب للمصريين جميعا . . على ما أعتقد

الكلام بقية

أحمد رمزى

المدير العام لمصلحة الاقتصاد الدولى

السلام العالمى والإسلام

كتاب جديد بقلم

سيد قطب

الناشر : مكتبة وهبة
١٩ شارع ابراهيم باشا بعابدين

١٩٠ صفحة ١٥ قرشاً